علي محمد الشبيبي: من أجل تعليمٍ يحرّر الإنسان (5/3)



التربوي علي محمد الشبيبي (1913-1997)

تكملة الحلقة الثالثة:

مدرسة أخلاقية لا تُنسى

مقدمة

في الحلقة السابقة استعرضنا شهادتي الأديب عبد الرحمن مجيد الربيعي والأستاذ الدكتور محمد موسى جياد الأزرقي، اللتين كشفتا جانباً من أثر علي محمد الشبيبي في اكتشاف المواهب الأدبية واللغوية وتشجيع القراءة وبناء الثقة بالنفس. وقد بدت صورة المعلم فيهما أبعد من حدود المقرر الدراسي، وأوسع من الدور التقليدي للمدرس داخل الصف.

وفي هذه الحلقة نواصل الإصغاء إلى تلاميذ ذلك الجيل، من خلال شهادة الخبير الاقتصادي الراحل الدكتور كامل العضاض، التي كُتبت بعد عقود طويلة من أيام الدراسة، لكنها احتفظت بحرارتها وصدقها. وهي شهادة لا تضيف تفاصيل جديدة عن المعلم فحسب، بل تساعدنا أيضاً على فهم السبب الذي جعل ذكراه تبقى حية في نفوس كثير ممن عرفوه وتتلمذوا على يديه.

3- شهادة الخبير الاقتصادي الدكتور كامل العضاض[1]

أما شـهادة الدكتور كامل العضـاض، الخبير الاقتصـادي الراحل وأحد تلاميذ الوالد في مدينة الناصرية، فقد وصـلتني

بصـورة رسـائل إلكترونية بعد أن اطلع على ما كنت أنشرـه من ذكريات عن والدي المربي الراحل. وكانت رسـالته الأولى بتاريخ 25 كانون الثاني 2011، ثم أعقبتها رسائل أخرى حملت ذكريات شخصية وتقديرًا كبيرًا لمعلمه.



الخبير الاقتصادي د. كامل العضاض

وقد كتب في رسالته الأولى:

«عزيزي الأستاذ محمد علي الشبيبي المحترم

تحية طيبة، وكل عام وأنتم بخير

تابعنا منذ مدة ما تكتب، وخصوصا حول تراث المربي الكبير الأستاذ علي الشبيبي، والدكم، رحمه الله. لقد صدقتَ في كل ما وصـفته وعرضـته من سـيرة رفيعة وخلاّقة لهذا الرجل الأب والمُثقِف والوطني والذي ينتمي إلى أسرة معروفة بوطنيتها، والى مدرسة ثقافية أدبية ومتنورة.

لقد كان للراحل الخالد في نفوسنا، ونحن تلامذته الصغار في مدينة الناصرية في مطلع الخمسينات من القرن الماضي، إعجاب واحترام كبيران لشخصيته، ولا نزال نحمل عنه في ذاكرتنا صورا جليلة، كما لا تزال تتوغل في نفوسنا ما غرس فينا من حب للغة العربية وللأدب والفن المسرـحي، والحب الإنسـاني. نعم، لقد كان إنسـانا ومعلما رائعا، فقد كان و لا يزال يشـكل في ضـميري، شـخصـيا، مَعلَما أخلاقيا وعلميا وأدبيا رفيعا، وسـتبقى ذكراه في نفوسـنا ما عشـنا. ومن حقك وحق شـقيقيك، كفاح وهمام، اللذين لا اعرف أين هما الآن؟ ولم أسـمع عنهما منذ منتصـف الخمسـينات، حين غادرت أنا الناصرية، ولم أعد إليها إلا لماما. من حقكم أن تفخروا بتراث الوالد المربي، وأن تنقلوا لأولادكم نموذجه الأخلاقي والتربوي والسلوكي، طيب الله ثراه، فهو كان من **البناة الخلاقين**، فحسب سقراط، "حين تُعلم الأجيال بجدارة، فأنت تخلق"، فهو كان خلاّقا.

....وطبعا، ستعرف، من الصورة، أن الوالد جالس في الوسط ومتكئا على عصا، يستخدمها للإيضاح، وليس للضرب، فعمره لم يضرب تلميذا، بل كان أبا للجميع وستبقى ذكراه في نفوسنا خالدة، ما عشنا وما عاش الأوفياء».

وفي هذا الموضع أود الإشارة إلى أن الدكتور كامل العضاض أوضح أن العصا التي تظهر في الصورة لم تكن أداة لضرب التلاميذ كما قد يتصـور البعض، بل كان الوالد يسـتخدمها للإيضـاح. وقد تناول الوالد أسـباب حمله العصـا في نهاية موضوعة «حصن الأخيضر» من ذكرياته (الرائد علي محمد الشبيبي ذكريات التنوير والمكابدة).

ويضـيف الدكتور كامل العضـاض في رسـالة أخرى، متحدثًا عن أهمية نشرـ تراث الوالد وأفكاره التربوية والاجتماعية: «أرجو أن أكون قد وفيت الوالد بعض الحق لا لكونه أبا وإنما لأنشر أفكاره التربوية ونظرته الاجتماعية التي سبق بها زمانه وخاصـة عندما يتحدث عن وباء الطائفية وما يسـببه من تخلف وجهل ودور المؤسـسـات الدينية في مكافحة وباء الجهل والتظليل، وكأنه يتشوف أيامنا الحاضرة» .

ثم عاد الدكتور العضاض في رسالة ثالثة بتاريخ 23 آب 2011، ليضيف تفاصيل أخرى عن علاقته بمعلمه وأسرته،

وعن استمرار أثره في ذاكرته، فكتب:

«عزيزي الأستاذ محمد على الشبيبي المحترم

تحية تقدير واعتزاز

أقول لك بصراحة، كان بنفسي أن أكتب أشياءً أخرى عن لطف وكرم ورِفعة المرحوم المخلّد في نفوسنا والدكم، طيب الذكر، ما عشنا وعاش تلامذته، فأنا ممن يعتز بكوني كنت تلميذه، من الصف الرابع إلى السادس الابتدائي، حيث تخرجت من الابتدائية وانتقلت إلى المتوسطة أو ثانوية الناصرية. ولكن علاقتنا، بل علاقة أسرتي بأسرة الراحل الكبير والدكم استمرت إلى أن انتقل إلى كربلاء، كما أظن، وأنا غادرت الى لبنان ثم بريطانية لإكمال مراحلي الدراسية. كان الوالد الراحل لا يتحدث عن شقيقه الشهيد المناضل حسين الشبيبي "صارم"، الذي أعدم مع "فهد"، كما كان متواضعا، جما، وكريم النفس. فضلا، عن فضله في غرس قواعد اللغة العربية وآدابها في نفوسنا، ولكنه كان معلما للفضيلة ومكارم الأخلاق أيضا.

الحقيقة، أنا أكتب الآن سلسلة من أقاصيص من حياتي بين الناس، لا أريد أن انشرها، إلا قبيل رحيلي، وأرغب أن اخصّه، كواحد من أبرز المعلمين المؤثرين على مرحلة طفولتي، وسوف أستعين بالصورة التي جمعتني به مع فرقة مسرحية طارق ابن زياد التي أخرجها هو للنشاط المدرسي الثقافي والفني، وكان الفريق يتكون من زملائي ورفاقي من نفس صفي ومن صفوف أخرى. كم أشعر الآن بالحنين إليهم والى أستاذي الشبيبي، والى معلم صالح، معلم اللغة الإنكليزية، وصاحبيّ محمد موسى جياد وعبد الرحمن الربيعي؛ نعم لقد كانت أيام رائعة. وستبقي ذكرى حبيبنا ومعلمنا الأستاذ الشبيبي راسخة في ضمائرنا وذاكرتنا. وحينما أقرأ مسلسل مذكراته التي تنشرها الآن، أعجب لصبر ذلك الرجل، ولشموخه ولتضحياته. أنه مدرسة أخلاقية، ومذكراته سجل حافل بها، بل وبجوانب عديدة لتأريخ العراق السياسي والاجتماعي.

أرجو أن تضيف عبارات الوفاء هذه، ولا تنسى أن ترفدني بنسخة، في الأقل، من كتاب المذكرات، بعد طبعه، وشكرا لكل جهودك أيها الوفي ابن الأوفياء.

واسلم لأخيك/ كامل العضاض».



الصورة التي أشار إليها الدكتور كامل العضاض في شهادته. الناصرية 1951 مدرسة فيصل الأول تقدم مسرحية "فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد" وكانت المسرحية من إعداد وإخراج التربوي علي محمد الشبيبي . في وسط الصورة جالسا علي الشبيبي، وعلى يساره عبد الوهاب البدري، وخلفه مهدي صالح. كان من الممثلين في المسرحية: الروائي عبد الرحمن مجيد الربيعي، الاقتصادي الدكتور كامل العضاض، الدكتور محمد موسى الأزرقي وسهيل علوان.

إن ما يلفت النظر في شهادة الدكتور كامل العضاض أنه استعاد علاقته بالوالد بعد مرور عقود على انتهاء دراسته الابتدائية، ولم يقتصر حديثه على ما تعلمه منه في اللغة العربية وآدابها، بل توسع ليصف مكانته في نفسه بوصفه معلمًا للفضيلة ومكارم الأخلاق، ونموذجًا إنسانيًا ظل حاضرًا في ذاكرته.

كما أن إشارته إلى الفرقة المسرحية المدرسية التي أخرجها الوالد، وحنينه إلى زملائه ومعلميه، تضيف دليلًا آخر على اتساع التجربة التربوية للوالد؛ فقد كان النشاط المدرسي والفني جزءًا من عمله التعليمي، وليس نشاطًا منفصلًا عن بناء شخصية التلميذ.

ومن المهم كذلك أن العضاض أكد أن الوالد لم يكن يضرب تلاميذه، وأنه كان ينظر إليهم باعتبارهم أبناءً له. وهذه الشهادة تكتسب دلالتها عند مقارنتها بما كتبه الربيعي في مستهل شهادته عن العقاب البدني الذي اقترن ببعض تجاربه التعليمية الأولى؛ فقد وجد في معلمه علي الشبيبي نموذجًا مختلفًا، قائمًا على اكتشاف الموهبة والتشجيع ومنح الثقة.

ما الذي تكشفه هذه الشهادات عن تجربة علي محمد الشبيبي التربوية؟

عندما نضع هذه الشهادات إلى جانب ما دونه الوالد عن منهجه في التدريس، تتضح أمامنا صورة متكاملة لمعلم لم يكن يقيس نجاحه بإنهاء المقرر الدراسي أو حصول التلاميذ على درجات جيدة فحسب، بل بما يتركه في نفوسهم من معرفة وثقة واهتمام بالأدب والفن والأخلاق.

فالربيعي يتحدث عن معلم اكتشف موهبته الأدبية وشجعه على القراءة، والأزرقي يستعيد فضل معلمه في توجيهه إلى حب اللغة العربية والأدب والقرآن الكريم، فيما يتذكر العضاض أثره في تكوين شخصيته الأخلاقية والإنسانية، ويؤكد أن علاقته به بقيت حاضرة في ذاكرته بعد مرور سنوات طويلة.

وتتقاطع هذه الشهادات في عدد من الجوانب الأساسية:

- **اكتشاف المواهب ورعايتها:** لم ينتظر الوالد أن تظهر الموهبة في صورتها الناضجة، بل كان يتنبه إلى الاستعدادات المبكرة لدى تلاميذه، كما حدث مع عبد الرحمن مجيد الربيعي.
- **الاهتمام باللغة والأدب والفنون:** لم يحصر التعليم في القواعد والمعلومات، بل وسّع دائرة اهتمام التلاميذ بالقراءة والشعر والإنشاء والقرآن والمسرح المدرسي.
- **بناء العلاقة الإنسانية مع التلميذ:** تتفق الشهادات على أن الوالد كان معلمًا قريبًا من تلاميذه، يستطيعون الاعتماد عليه والثقة به، وأنه لم يكن يستخدم الضرب وسيلة للتربية.
- **الامتداد الطويل للأثر التربوي:** لم تنتهِ علاقته بتلاميذه بانتهاء سنوات الدراسة، بل بقيت ذكراه حاضرة في نفوسهم، واستعادوا فضله بعد أن أصبحوا أصحاب تجارب، ومكانات علمية وأدبية ومهنية.

وما يمنح هذه الشهادات أهميتها أنها لم تصدر في مناسبة واحدة أو في سياق واحد؛ فقد نُشرت شهادة الربيعي في مجلة «الزمان الجديد» عام 2000، وكتب الأزرقي عن تجربته في حلقات متتابعة، فيما وصلت رسائل كامل العضاض في عام 2011. وهذا التباعد الزمني، مع اختلاف أصحاب الشهادات ومساراتهم، يجعل اتفاقهم على جوانب أساسية من شخصية الوالد التربوية أمرًا يستحق التوقف عنده.

إن هؤلاء التلاميذ الأوفياء لم يعودوا مجرد أسماء في سجل مدرسي قديم؛ فقد أصبح بعضهم من الأدباء المعروفين، وبعضهم من الأكاديميين والاختصاصيين الذين تركوا أثرًا في مجالاتهم. وما يجمع شهاداتهم هو اعترافهم بأن معلمهم لم يكن يؤدي وظيفة تعليمية محدودة، بل كان يسهم في تكوين شخصياتهم وتوجيه اهتماماتهم وفتح آفاق جديدة أمامهم.

وهنا تتجلى إحدى أهم حقائق الرسالة التربوية: أن أثر المعلم لا يقاس بما يحفظه التلميذ من معلومات في سنوات الدراسة وحدها، بل بما يساعده على اكتشافه في نفسه، وما يزرعه فيه من ثقة ورغبة في المعرفة، وما يرافقه من قيم ومبادئ طوال حياته.

ولعل كلمات الدكتور كامل العضاض، حين وصف الوالد بأنه **«مدرسة أخلاقية»**، تختصر جانبًا مهمًا من هذه التجربة. فالمدرسة هنا ليست بناءً أو منهجًا دراسيًا، بل شخصية تربوية جمعت المعرفة بالأخلاق، والجدية بالإنسانية،

والاهتمام بالمادة العلمية بالاهتمام بمواهب التلاميذ وحياتهم.

وهكذا لا تبقى أفكار علي محمد الشبيبي التي عرضناها في المحاور السابقة مجرد مواقف نظرية دوّنها في ذكرياته، بل نجد لها شواهد في حياة تلاميذه أنفسهم. وهذا ما يجعل العودة إلى تجربته اليوم أكثر من مجرد استذكار لماضٍ تربوي؛ إنها محاولة لفهم ما يمكن أن يصنعه المعلم حين يؤمن برسالته، ويملك حرية المبادرة، ويجعل من احترام الإنسان وتحرير عقله أساسًا لعمله.

خاتمة:

حين تُقرأ هذه الشهادات جنباً إلى جنب، يصعب النظر إليها بوصفها مجرد كلمات وفاء لمعلم رحل منذ سنوات طويلة. فالفاصل الزمني بين أصحابها، واختلاف مساراتهم المهنية والفكرية، وتباعد المناسبات التي كُتبت فيها، كلها تجعل اتفاقهم على ملامح أساسية من **شخصية علي محمد الشبيبي** أمراً جديراً بالتأمل. فقد رأى فيه بعضهم مكتشفاً للموهبة، ورأى فيه آخرون مرشداً ثقافياً ولغوياً، بينما وجده كامل العضاض نموذجاً أخلاقياً ظل حاضراً في الذاكرة بعد أكثر من نصف قرن من انتهاء الدراسة.

ولعل أهم ما تكشفه هذه الشهادات أن التعليم، في جوهره، ليس نقلاً للمعلومات وحدها، بل بناء لعلاقة إنسانية تترك أثرها في الشخصية والسلوك والاختيارات اللاحقة. فالمعلم الذي يحظى بالمكانة في ذاكرة تلاميذه بعد عشرات السنين ليس بالضرورة أكثرهم صرامة أو أكثرهم علماً فحسب، بل أكثرهم قدرة على الجمع بين المعرفة والإنسانية، وبين التربية والثقافة، وبين الاحترام والتوجيه.

ولا يتوقف أثر هذه الشهادات عند إبراز مكانة المعلم في نفوس تلاميذه، بل يساعدنا أيضاً على فهم جانب مهم من تجربته التربوية. فالتلاميذ الذين تحدثوا عن القراءة والأدب والمسرح المدرسي والأنشطة الثقافية لم يكونوا يستعيدون ذكريات عابرة، وإنما كانوا يشيرون إلى رؤية تربوية أوسع كانت ترى في المدرسة فضاءً لبناء الشخصية وتنمية المواهب. ولهذا نتوقف في الحلقة القادمة عند هذا الجانب من تجربة علي محمد الشبيبي، ودور المدرسة في الثقافة والحرية والكرامة.

في الحلقة الرابعة: **«المدرسة فضاء للثقافة والحرية والكرامة»**

[1]- الدكتور كامل العضاض (1941 - 2021) هو اقتصادي وأكاديمي عراقي بارز، حاز على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد القياسي من جامعة ويلز البريطانية وعمل لسنوات طويلة في وزارة التخطيط العراقية والمنظمات الدولية .تميزت مسيرته بتقديم رؤى علمية دقيقة لإصلاح الاقتصاد العراقي، حيث ركزت كتاباته وأبحاثه على مكافحة الفساد، وتحديات التنمية المستدامة، وضرورة التخلص من تبعات النظام الريعي عبر تنويع مصادر الدخل.

يتبع ...

الكاتب: محمد علي الشبيبي

السويد 15-11-2026